

تنبيه على غلط شائع في تناول السيرة النبوية عند بعض المتأخرين

السيرة النبوية تُتلقى علمًا بالنظر إلى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا نبيا، فإنَّ الذي امتاز به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سائر البشر هو النبوة والرَّسالة، فالمُبْتَغى الانتفاع بسيرة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا مَحِيدَ له عند النَّظر في تفاصيلها واستنباط معانيها من النَّظر إلى كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان رسولًا نبيا.

ومن الغلط الجاري عند المتأخرين: تصيير سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبارًا عن عظيم من العُظماء، أو حكيم من الحكماء، أو ذكي من الأذكياء، أو قائد من القادة؛ فإنَّ هذا تهوينٌ للمرتبة السَّامية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النبوة والرَّسالة، وتصييرٌ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كغيره ممَّن يُحاذى به من القادة والأذكياء والعُظماء والرُّؤساء والحُكَّماء.

وهذا داءٌ سرى إلى مَنْ كتب في السيرة النبوية من المتأخرين تأثرًا بما دَوَّنَه المُستشرقون في كتبهم في السيرة النبوية، فإنَّهم تناولوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناظرين إليه رجلاً، عظيمًا، ذكيًا، قائدًا، فصار بعضٌ من تغذّي بلبانهم وأخذ عنهم يُقرَّر هذا المعنى الذي يُوهن ما له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مرتبة الرَّسالة والنبوة.

ولشيخ شيوخنا مُحَمَّد بن مُحَمَّد أبو شُهبة المصري رَحِمَهُ اللهُ صرْخَةٌ نذير، وصيحةٌ تحذير، لمحاذاة سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسير أولئك، وله كلام حسنٌ تحسُن قراءته، ذكره

في مقدمة كتابه «السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة»^(١)، يعلم به قارئه شدة الخطأ الفادح الذي انتشر عند الناس من النظر إلى سيرته صلى الله عليه وسلم سيرة ذكي أو عظيم أو قائد أو حكيم أو نبيل، بتجريدِه عن المرتبة العظمى وهي مرتبة النبوة والرسالة، فله رحمه الله سابقة الفضل في الإشارة إلى مخاطر ذلك.

ولم تزل الأيام بعده تشتد في وقوع الناس في هذا الشر، حتى صرت تسمع الخبر عنه صلى الله عليه وسلم ممن يعلم السيرة تارة كمليك من الملوك، وتارة كعظيم من العظماء، وتارة كذكي من الأذكىاء، وتارة كحكيم من الحكماء، وصار المستعمل في الخبر عن سيرته صلى الله عليه وسلم هو الخطاب الدارج عند الناس.

فأذكر أنني سمعت رجلاً يسرد السيرة فيقول - مبيّنًا حالاً عرضت للنبي صلى الله عليه وسلم مع الصحابة قائلًا -: (ثم خرج الملك يتحدث إلى الشعب تحقيقًا للتواصل معهم). انتهى كلامه.

فمثل هذا السقط من الكلام تهوينٌ لمرتبة النبي صلى الله عليه وسلم بجعله ملكًا، وهو الذي اختار كونه عبدًا رسولًا صلى الله عليه وسلم، مع ما في لفظة (الشعب) بهذا المعنى من التوليد المنافي فصاحة كلام العرب.

وإذا قبل هذا ممن ليست له يد في العلوم الشرعية؛ فإنه عورة لا تُستر، وسوءة لا تُحمد إذا صار المشتغلون بالسيرة من أهل الشريعة يُخبرون عن الجذاب النبوي والمقام المحمدي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه المسالك.

(١) انظر مقالة (النبوة شيء، والعبرية شيء آخر) ص ١٧.

والدَّاءُ يبدأُ صَغِيرًا، حَتَّى يَسْتَفْحَلَ فَيَصِيرُ وَرَمًا، فَإِذَا اشْتَدَّ بِالْبَدَنِ رَبَّمَا قَتَلَ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ خُلْدًا كَثِيرًا وَقَعَا فِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدَارِكِ وَالْأَفْهَامِ وَالْحَقَائِقِ وَالْمَقَاصِدِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى السَّيِّرَةِ، تَوْلَدُ مِنْ جَعْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِدًا أَوْ حَكِيمًا أَوْ ذَكِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَرَاتِبِ الْخَلْقِ.

وَأَمَّا جَعْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا نَبِيًّا فَهُوَ يَسْمُو بِتَنَاوُلِ السَّيِّرَةِ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ، وَيُصْلِحُ قَلْبَهُ، وَيُدْرِكُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَالْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُوجَدُ فِي سَيْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المصدر: شرح «الأرجوزة المئّية»